يوم الامتحان الأعظم

● الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كلما أقبلت مواسم الامتحانات، ورأيت الطلاب والطالبات منكبين على دروسهم، منهمكين في مذاكرتهم، مشغولين بيوم آت لا ريب فيه، هو يوم الامتحان، يوم يكرم المرء فيه أو يهان، كلما رأيت هذه المواسم ورأيت الانشغال والجد، والاهتمام والحرص، وترقب هذا اليوم بقلق وخوف، ذكرني ذلك بامتحان أكبر يغفل الناس عنه ويهملونه، ويضعونه دبر آذانهم، وتحت أقدامهم، ذلك الامتحان الأكبر هو امتحان يوم القيامة.

امتحانات الدنيا مهما تكن نتائجها تهون، الناس يشغلون بها كل الشغل، ينشغل الطالب وأهله، ينشغل الأبناء والبنات، والآباء والأمهات، تنشغل الأسرة كلها بهذه الامتحانات، وتسر إذا كانت النتيجة حسنة، وتساء وتحزن إذا كانت النتيجة سيئة، فبيت فرح مسرور، وبيت آخر آسٍ حزين، ولكن لماذا يكون السرور؟ ولماذا يكون الحزن؟

السرور لأن الإنسان قد اجتنى ثمرة اجتهاده وجده، فمن حقه أن يفرح، ومن حق أهله أن يفرحوا، وآخر قد جنى نتيجة تفريطه، فمنه شأنه أن يحزن وأن يساء، ومن شأن أهله كذلك.

إلا أن امتحانات الآخرة أشد خطراً، وأبقى وأخلد أثراً، امتحانات الدنيا تهون؛ لأن الامتحان يمكن أن يعوض، يمكن أن يكون له ملحق، أن يكون له دور ثان، يمكن أن يعيد السنة ويستدرك ما فات.

صحيح أن هناك فرقاً بين السابقين واللاحقين، والمتفوقين والمتأخرين، ولكن الأمور يمكن أن تتدارك، لكن امتحان الآخرة لا تدارك فيه، هناك يوم لا ريب فيه، يمتحن فيه المكلفون جميعاً، عربهم، وعجمهم، ذكورهم وإناثهم، غنيهم وفقيرهم، حكامهم ومحكوموهم، فهم جميعاً يمتحنون في هذا اليوم، فماذا قدموا لهذا اليوم، هل زرعوا فهم يحصدون؟ هل غرسوا فهم يجتنبون؟ أو فرطوا وأضاعوا؟ اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، اليوم الغرس وغداً اجتناء الثمرات، اليوم الزرع وغداً الحصاد، وقد قال القائل:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر

وهذا هو زمن البذر، الدنيا مزرعة الآخرة، فمن أراد أن يحصد غداً فليزرع اليوم... فليقدم لنفسه قبل أن يأتي يوم الامتحان، وهو يوم لا غش فيه.

إذا كان الناس يغشون في امتحانات الدنيا، ويتعاون بعضهم على الإثم والعدوان، فليس في امتحان الآخرة غش، وليس فيه مساعدة، لا يساعد أحد أحداً، لا يساعد الابن أباه، ولا الأب ابنه، ولا الزوج زوجه، ولا الصديق صديقه، كل إنسان مشغول بنفسه، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٣ ـ ٣٧].

كل إنسان يقول: نفسي نفسي: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

كل يطلب النجاة لنفسه، لا يدري قد ينقص ميزانه حسنة واحدة فكيف يمنحها لغيره؟ الميزان بالحسنات والسيئات، التعامل ليس بالدرهم والدينار، ولا بالريال ولا بالدولار، ولكن العملة الوحيدة في ذلك اليوم الحسنات والسيئات، فلا ينفع أحدٌ أحداً، إنه يوم الأنانية المفرطة، يوم الفردية المطلقة، حتى الأبوة، حتى الأمومة، حتى هذه العواطف الحانية لا وجود لها في ذلك اليوم كل

جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**يحشر الناس حفاة عراة غرلاً**» (غير مختونين) قالت عائشة: فقلت: الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «**الأمر أشد من أن يهمهم ذلك**»[1] الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض، كل مشغول بنفسه، قيل: وما شغله[2]؟ قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧].

أجل، كل مشغول بمصيره: أيسعد سعادة الأبد أم يشقى شقوة الأبد؟ أيكون من أهل الجنة أم من أهل النار؟ إنه يوم الحساب الأكبر، يوم الامتحان الأعظم، ولكن الناس في غفلة عن هذا اليوم، الطالب المجد يعد ليوم الامتحان من أول العام، يجتهد ويستذكر ويراجع وينتبه، حتى يجني الثمرة في النهاية نجاحاً وفلاحاً وتفوقاً يبشر به ويهنأ به، ولكن العاجز الكسلان يتبع نفسه هواها، ويتمنى على الله الأماني.

وكذلك الناس في الآخرة، هناك من يعد للحساب عدته، من يتهيأ ليوم الامتحان الأكبر، ومن يغفل عن هذا اليوم.

● والناس في هذا أصناف ثلاثة:

صنف: لا يؤمن بالآخرة، يظن أنه خلق لهذه الدنيا وحدها، لا يؤمن بحساب ولا جزاء ولا جنة ولا نار، أولئك هم الماديون والدهريون والشيوعيون وغيرهم من الملاحدة قديماً وحديثاً، أولئك الذين ظنوا قصة الحياة أرحاماً تدفع،

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٩٢٥، الحديث ٢٢٤١).

(٢) يشير الشيخ إلى حديث سودة بنت زمعة رضي الله عنها وفيه: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس حفاة عراة غرلاً، قد ألجمهم العرق، وبلغ شحوم الآذان» فقلت: يبصر بعضنا بعضاً؟ فقال: «شغل الناس لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» رواه الطبراني، ورواته ثقات. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عباس وهو ثقة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٩٢٦، الحديث ٢٢٤٣).

وأرضاً تبلع، ولا شيء وراء ذلك ﴿... نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

هكذا وجد من قديم وحديث أناس يظنون أن هذه الحياة هي كل شيء، هي المبدأ والمنتهى، هي الأولى والآخرة، ولا شيء غيرها، لماذا إذن كان هذا الخلق؟ لماذا إذن كانت هذه الحياة؟ لماذا انتصب هذا السوق؟ إذا كانت هذه الدنيا ستنتهي ولا حياة بعد ذلك... ولا بعث... ولا حساب، وقد نهب الناهب، وسرق السارق، وظلم الظالم، وقتل القاتل، وطغى الطاغي، إذا كان كل هؤلاء ستطوى صفحاتهم ولا يجازي أحدهم بما عمل فأين العدل إذن؟ أين الحكمة؟ إن بعض هؤلاء قد فر من عدالة الأرض فأين عدالة السماء؟ قد هرب من عدالة الدنيا، ألا توجد عدالة أخرى؟، بل بعض من هؤلاء من واضعي القوانين وحراسها، حاميها حراميها! هؤلاء لم يجاوزوا في الدنيا، أفلا يوجد عدل؟ إذا لم يكن هناك آخرة فلا عدل.

كيف يسوي هؤلاء الظلمة الطغاة بآخرين نصروا الحق، وفعلوا الخير، وقاوموا الظلم، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، فأعلن الطغاة حرباً عليهم، وساموهم سوء العذاب، فشرد من شرد، وعذب من عذب، وقتل من قتل؟.

ما الذي يعوض هؤلاء عما قاسوه في الدنيا في سبيل الحق والعدل، إذا لم تكن هناك حياة أخرى؟

أينتهي الأمر بنجاة أهل الباطل والظلم، وإبادة أهل الحق والخير؟ وقد قضى الأمر. وختم الكتاب، وأسدل الستار؟؟!!

هذا هو الباطل الذي يتنزه الله تعالى عنه، هذا هو العبث الذي لا يليق بحكمته وجلاله، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦]، ويقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٧ ـ ٢٨]، لا والله لا يستويان ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

والله لا يستويان ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢١ ـ ٢٢] ، الحق الذي قامت عليه السموات والأرض أنه لا بد من جزاء عادل، لا بد من أن توفى كل نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] .

هناك عدالة إلهية، هناك قصاص لا بد منه، حتى أنه ليقتص للشاة الجلحاء التي لا قرن لها من الشاة القرناء، التي اعتدت عليها ونطحتها كما جاء ذلك في صحيح مسلم[1]، دلالة رمزية على أن العدل الإلهي عدل شامل، لا يمكن أن يهرب منه أحد، قسطاس مستقيم وميزان عادل لا جور فيه.

جاء رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال: إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل» فتنحى الرجل، وجعل يهتف ويبكي، فقال له رسول الله ﷺ: «أما تقرأ قول الله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧] فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء خيراً من مفارقتهم، أشهدك أنهم كلهم أحرار[2] ما دامت المسألة بهذا التحديد وهذا التدقيق فليرح نفسه ويعتقهم لوجه الله، لا

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» رواه مسلم، والترمذي (المنتقى من الترغيب والترهيب: ٢/ ٩٣٠، الحديث ٢٢٥٩).

(٢) رواه أحمد والترمذي، عن عائشة رضي الله عنها. وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوي: ٢/ ٦١٣ ـ ٦٣٢، الحديث ١٣٤٨).

بد من حساب وميزان لحبة الخردل.

هناك أناس لا يؤمنون بالآخرة، لا يؤمنون بالبعث والحساب، يستبعدون على الله تعالى أن يعيد خلقاً بدأه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩]، هؤلاء هم الماديون المنكرون للآخرة، وهم الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧ ـ ٨].

هذا صنف من الناس، وهناك صنف آخر يؤمنون بالآخرة، ويؤمنون بأن بعد الموت بعثاً، وأن بعد البعث حساباً، وأن هناك جنة وناراً، ولكنهم غافلون عن هذا المصير، غرقوا إلى آذانهم في دنياهم، عاشوا ليومهم ونسوا غدهم، أحبوا الدنيا ونسوا الآخرة، وأحبوا المال ونسوا الحساب، وأحبوا الخلق ونسوا الخالق، وأحبوا القصور ونسوا القبور، هؤلاء مؤمنون بالآخرة، ولكنه إيمان نائم مخدر ضعيف، لا يبعث على عمل، لا يحفز إلى خير، ولا يردع عن شر، ليس هذا هو الإيمان المراد، نريد إيماناً بالآخرة يدفع إلى عمل الخير، ويزع عن فعل الشر.

أكثرنا للأسف من هذا الصنف الثاني، كلنا يؤمن بأن هناك آخرة، كلنا يؤمن بيوم القيامة، كلنا يؤمن بالجنة والنار، ولكن من منا الذي يذكر ذلك في مصبحه وممساه، وغدوته وروحته، وجلوته وخلوته؟! وقد قال النبي ﷺ لابن عمر: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك[1].

---

(١) رواه البخاري، وروى الترمذي والبيهقي نحوه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٨٦٦/٢، الحديث ٢٠٨٠).

ما يدريك ـ أيها الإنسان ـ أنك إذا أصبحت ستعيش إلى المساء؟ وما يدريك إذا أمسيت أنك ستبقى إلى الصباح؟ فالأمر ليس في يدك، إنما هو في يد غيرك، والأجل مجهول لا يعرفه أحد ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] ونحن نعرف في هذا العصر موت الفجأة... الموت بالذبحة الصدرية أو بالسكتة القلبية، أو غير ذلك من الأمراض التي عرفها الناس في هذا العصر، ونعرف الموت بالحوادث... حوادث السيارات، أو حوادث الطائرات أو حوادث البواخر أو غير ذلك. وقد لا تخطىء أنت، ولكن يأتي من يخطىء فيدهمك ويقضي عليك، قد تكون ماشياً على قدميك، فيأتي من يصعد إلى حافة الطريق ويصدمك فتلقى أجلك، كل هذا وارد، فهل أعددنا للموت ولما بعد الموت عدته.

الموت أهون ما بعده وأشد ما قبله، الموت أشد من أي شيء عرض للإنسان في حياته، ولكنه أهون من كل المراحل التي تأتي بعد ذلك.

بعد الموت هناك القبر، وبعد القبر هناك الحشر... الموقف... الحساب... الميزان... الصحف... الصراط... الجنة.... النار، هذا كله بعد الموت.

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر يبكي حتى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد»** قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه»**[1] يقول هانىء مولى عثمان: وسمعت عثمان ينشد على قبر:

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب، ورواه ابن ماجه، الحاكم وصححه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٩٠٩، ٩١٠ الحديث ٢٢٢٥).

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فـإنـي لا إخـالـك نـاجـيـاً

إن تنج من هذه المنزلة من منازل الآخرة تنج من ذي عظيمة... تنج من هول شديد، وإلا فانتظر ما بعده.

«ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه» ما أصدقها كلمة!، وما أبلغها عبرة! ولكن لإلفنا هذا المنظر أصبح لا يؤثر فينا.

تصوروا إنساناً يعيش في حياة ناعمة... في بيت مكيف... في أثاث ورياش، وربما في قصر ضخم، وحوله خدم وحشم، ينتقل بعد ذلك إلى هذه الحفرة، ويوضع فيها وحده، لا أنيس.... لا جليس... لا خدم... لا حشم... لا حراس، ليس معه شيء إلا عمله، ماذا يصنع بما ترك خلفه؟ هب أن عنده الملايين هل يصحب منها شيئاً؟ هل توضع معه صناديق الذهب؟ ولو وضعوها معه هل يرشي منكر ونكير؟ لا... لا ينفع أحداً شيء مما خلّفه وراءه من دنياه وتراثه.

إذا مات العبد قالت الملائكة: ماذا قدم؟ وقال الناس: ماذا خلّف؟ الناس يسألون: كم ترك من رصيد في البنوك؟ كم ترك من عمارات وبنايات؟ كم ترك من عقار وأموال؟ ماذا خلف وراءه؟ والملائكة تسأل: ماذا قدم أمامه؟ لأن الذي ينفعه ليس ما خلّفه وإنما ما قدمه. ما خلّفه قد ينفعه وقد لا ينفعه، بل كثيراً ما يتضرر به؛ لأنه جمعه من غير حلّه، أو بخل به عن حقه، وتركه لمن لا يؤدون حق الله فيه.

وبعد القبر يأتي المحشر... يأتي الموقف... يأتي الحساب، تأتي هذه المراحل كلها، ولذلك كان الموت أهون من كل مما بعده..

رأى الحسن البصري رضي الله عنه ميتاً يدفن فقال: إن امرءاً هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله ـ أي في الدنيا التي قبله ـ وإن امرءاً هذا أوله لجدير أن يخاف آخره ـ أي: لما يأتي بعد ذلك من مواقف القيامة.

● الناس أصناف ثلاثة:

صنف: لا يؤمن بالآخرة، من الماديين الجاحدين أعاذنا الله من شرهم. وصنف: يؤمن بالآخرة، ولكنه غافل عنها، لا تعيش الآخرة نصب عينيه، بل يدعها وراء ظهره، كأنما جعلها نسياً منسياً، أو كتاباً مطوياً لا يريد أن يفتحه.

والصنف الثالث: هم الذين يؤمنون بالآخرة ويعيشون لها ويسعون سعيها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩] هؤلاء هم المؤمنون الصادقون الذين يعلمون أن الدنيا إنما هي دار ممر لا دار مقر، وأنها مزرعة للآخرة، وأنهم لم يخلقوا للدنيا وإنما خلقت لهم الدنيا، هم خلقوا للآخرة، خلقوا لله، فهم يتخذون الدنيا مطية يرتحلونها في سفرهم إلى الله، ولا يتخذونها رباً فتتخذهم عبيداً.

وهم يذكرون الآخرة دوماً، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لولا يوم القيامة لكان الأمر غير ما ترون. أي: كان كل إنسان يصنع ما بدا له، ويفعل ما يحلو له، يعبّ من الشهوات عباً، ويرتكب من الموبقات ما يرتكب، ويعتدي على كل ضعيف، وكانت الحياة غابة يفترس فيها القوي الضعيف، ولكن القيامة هي التي جعلت عمر يعف عن المال العام، ويعيش بثوب مرقع، وكنوز كسرى وقيصر تأتي إليه من هنا وهناك.

كانوا يعلمون أن أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، فلا يريدون عيشهم، إنما أرادوا أن يعيشوا في الدنيا بقلوب أهل الآخرة ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧] خوف يوم القيامة هو الذي قطع نياط قلوب المؤمنين، وجعلهم يعيشون دائماً بآمال الآخرة.

سئل بعض السلف: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت قريباً أجلي، بعيداً

أملي، سيئاً عملي؛ وسئل الإمام الشافعي: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ سأله المزني في علته الأخيرة فقال: أصبحت عن الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملي ملاقياً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله تعالى وارداً، ولا أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منةً وتكرما
ولولاك لم يغوى بإبليس عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدما؟

لو أن الناس استحضروا الآخرة... استحضروا الموت... استحضروا القبر... استحضروا القيامة.. استحضروا الميزان والصراط... استحضروا الجنة والنار... لانحلت مشكلات هذه الحياة، لما رأينا الصراع على هذا المتاع الأدنى، ما رأينا الإنسان يقاتل أهله، ويجافي إخوانه، ما رأينا تنازع البقاء أو تنازع الفناء الذي نشهده.

إن مشكلة الناس في عصرنا أن الآخرة غائبة عنهم، لو أن الآخرة حاضرة مشهودة في وعيهم... في عقولهم... في قلوبهم، لحلت المشكلات.. لتسامح الناس.. لأعطى كل ذي حق حقه.. لما تظالم الناس ولا طغى بعضهم على بعض، ولكنها الغفلة عن الآخرة، والغفلة شر ما يصيب الناس، ولهذا قال الله تعالى في ذم قوم جعلهم حطب جهنم: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وكان من دعاء السلف رضي الله عنهم: اللهم لا تدعنا في غمرة، ولا تأخذنا على غرة، ولا تجعلنا من الغافلين.

نسأل الله تبارك وتعالى ألا يجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، وأن يجعل الآخرة نصب أعيننا، اللهم آمين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

ألاحظ أن هناك بعض الإخوة يحضرون متأخرين، وهؤلاء يُفوِّتون على أنفسهم ثواباً عظيماً، فقد صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى ـ أي في الفوج الأول ـ فكأنما قرّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»[1] كأن السجل الذي يكتب فيه الحضور والغياب طوى... انتهى؛ لأنه جاء بعد الوقت المحدد، فهذا يحرم نفسه خيراً كثيراً، ثم يضطر إلى تخطي الرقاب فيؤذي الآخرين، ولهذا أوصى الإخوة بالتبكير.

إن كل لحظة تبقاها في المسجد تكتب لك صلاة، الإنسان في المسجد في صلاة ما دام ينتظر الصلاة حتى يحدث أو يخرج من المسجد، وما دام في المسجد ينتظر الصلاة فإن الملائكة تصلي عليه... تدعو له، تقول: اللهم اغفر له... اللهم ارحمه، حتى يحدث أو يخرج من المسجد[2].

---

(١) رواه مالك، والبخاري، ومسلم، وأبو داود والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٢٤٥، الحديث ٣٧٤).

(٢) يشير الشيخ إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «.... فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صلّ عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة» وفي رواية: «اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه» رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوي: ١/ ١٦٢، الحديث ١٦٦).

فاحرص على أن تجلس في المسجد بنية الاعتكاف لله عز وجل، ليكن لك عبادة ومثوبة عند الله، وبخاصة أننا مقبلون على الموسم العظيم.. على شهر رمضان.. شهر القرآن.. شهر العبادة.. شهر الصيام والقيام. فهيئوا أنفسكم له بالنية الصادقة.. بالتوبة النصوح.. بالعزم المصمم على أن تخرجوا منه مغفوراً لكم فـ «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم ذنبه»[1] «... ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[2].

اللهم اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقي، واجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩] اللهم آمين.

﴿... وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي والنسائي (المنتقى: ٣١١، برقم ٥١٥).

(٢) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه (المنتقى: ٣١١، برقم ٥١٤).